

يقال دائماً أن منطقة الشرق الأوسط هي منطقة الفرص الضائعة • لهذا سعت الولايات المتحدة مباشرة بعد انتهاء حرب الخليج لعدم إهدار الفرصة الذهبية التي قدمتها الحرب وتداعياتها على الوضع العربي ، وقررت أن تتحرك لتحضر العرب وإسرائيل إلى طاولة المفاوضات •

عندما انعقد مؤتمر مدريد في أكتوبر عام ١٩٩١ ، كانت كل الأطراف المشاركة فيه تأمل ، بل تهدف بأن تكون هذه البداية طريقاً لإنهاء النزاع العربي الإسرائيلي • ولكي يتم ذلك ، كان لابد من أن يكون هدف المفاوضات النهائي وبعيد المدى هو اقتلاع بذور الصراع من تربة الشرق الأوسط الخصبة بالحروب والنزاعات المتعددة الجوانب • والأسلوب الأمثل لتحقيق ذلك هو في حصول المصالحة التاريخية بين إسرائيل والعرب بعامة والفلسطينيين بخاصة وبالاعتراف المتبادل بين الأطراف وبالشعب الفلسطيني بالتحديد ، ويقبل الفلسطينيون والعرب بإسرائيل ويعترفون بها ويتعاملون معها ويمنحونها حدوداً آمنة • ويحل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً" يكفل للشعب الفلسطيني حقوقه الوطنية • وتتخلى إسرائيل عن أهدافها التوسعية خاصة في فلسطين • هذه هي المعادلة الصعبة والمتناقضة في بعض الأحيان التي ذهبت الأطراف لبنائها • وبعد مرور حوالي ٩ سنوات على بدء المفاوضات المباشرة بين الأطراف المعنية ، لا زالت هذه المعادلة عرضة للانهايار أو التراجع بالرغم من التقدم الذي حصل في المسارات الأردنية والفلسطينية واللبنانية وعلى مجمل العلاقات العربية الإسرائيلية • زلا تزال هناك معطيات أساسية تشير إلى أن هذا الصراع لن ينتهي في المستقبل المنظور •

وعندما ذهب العرب إلى مؤتمر مدريد ، كانوا يعرفون أن ميزان القوى يميل لصالح إسرائيل بشكل واضح ، وذلك لأسباب متعددة ، أهمها :

احتلال إسرائيل لأراضي عربية سورية لبنانية أردنية إضافة إلى ما تبقى من فلسطين أي كامل الضفة الغربية وقطاع غزة ووضعها تحت سيطرة إسرائيلية كاملة • وهذا الأمر ، خاصة ما يتعلق منه بفلسطين ، قد أعطى إسرائيل قوة مساومة كبيرة ووضعها في موقف قوي •

الدعم الأمريكي اللامحدود لإسرائيل والذي مكنها من أن تبني ترسانة عسكرية لا تضاهيها حتى بعض الدول الكبرى ، وقاعدة علمية تكنولوجية متقدمة ، واقتصاد نشط متحرك • كذلك اعتمدت إسرائيل على الشبكة الواسعة والفعالة التي بنتها في

العالم خاصة في الولايات المتحدة ، بالتنسيق الكامل والتعاون الأقصى مع الجاليات اليهودية والمنظمات الصهيونية في العالم • وقد مكنت هذه الشبكة إسرائيل من التشارك

مع مراكز القوى الرئيسية في المجالات السياسية والمال والاقتصاد والإعلام والنشر والتكنولوجيا وغيرها ، لتحقيق مآربها وخططها •

مشى أمر تهميش مفهوم الأمة والرابطة القومية خطوات طويلة قبل وبعد حرب الخليج • وكان هذا في الحقيقة السلاح الأول والأساس الذي تبناه الغرب والصهيونية في دفعنا نحو هزيمة السلام •

تزامن انهيار الاتحاد السوفيتي مع انهيار النظام العربي والتضامن العربي أو ما تبقى منه نتيجة لحرب الخليج • وهذان الحدثان أديا ضمن ما أديا إليه إلى انقطاع الدعم السياسي والعسكري والمعنوي الذي كان الاتحاد السوفيتي يقدمه للقضايا العربية ، واستنزاف الأرصدة العربية وتراجع أهميتها وتأثيرها على الاقتصاد العالمي • وبقي القرار الاستراتيجي الإسرائيلي في مواجهة العرب مركزيا" ، بينما تفتت القرار العربي الاستراتيجي في شأن النزاع العربي الإسرائيلي بشكل لم يسبق له مثيل • وانعكس ذلك حتى على الأطراف العربية المشاركة في المؤتمر •

وفي نفس الوقت اعتمد العرب في ذهابهم إلى مدريد على عناصر القوة العربية التي من الممكن أن تضاهي العناصر الإسرائيلية فيما إذ حسن استعمالها واستغلالها •

اعتمدوا على العمق التاريخي والتراثي والحضاري للعروبة والإسلام وعلى العامل الديموغرافي العربي ، وكذلك على حسن النية والوعود الأمريكية بالتدخل الموضوعي في سير المفاوضات •

وسارت المفاوضات بين الأطراف العربية وإسرائيل منذ عام ١٩٩١ بين مد وجزر بالطريقة التي نعرفها جميعا" ، ولا داعي لسرد تفاصيلها هنا • وانضم الأردن إلى مصر في توقيع اتفاقية سلام رسمية مع إسرائيل ، واعترفت منظمة التحرير الفلسطينية بإسرائيل ووقعت معها اتفاقية أوسلو • وسوف تنسحب إسرائيل خلال شهرين من لبنان • وتم تبادل تمثيل دبلوماسي بدرجات متفاوتة بين إسرائيل ودول عربية عديدة من ضمنها دول أعضاء في مجلس التعاون الخليجي • غير أن ذلك كله لم يؤدي بعد إلى سلام حقيقي بين إسرائيل وجيرانها العرب ، حتى مع أولئك الذين وقعوا معها اتفاقيات سلام • إسرائيل تعي هذا الأمر وكذلك العرب والعالم • وإنني ازعم أن السلام سيكون مصالحة سياسية، أو تسوية سلمية كما يشير عنوان المحاضرة ، وليس مصالحة تاريخية أو إنهاء للنزاع العربي الإسرائيلي وذلك للأسباب التالية :-

لا زال جوهر القضية الفلسطينية وهو الأرض بدون حل ومعلقا" • بل تتعرض الأرض كل يوم أولا" :- إلى مساومات وإلى نهب • ولم تظهر إسرائيل لغاية الآن أي تغيير على نظرتها تجاه أرض فلسطين • فالعقيدة اليهودية والمشروع الصهيوني والدولة الإسرائيلية تؤمن أن كل أرض فلسطين هي إسرائيل إنها أرض الميعاد • وكل الأحزاب والقوى السياسية والاجتماعية ما زالت تؤمن بذلك وتمسكة به • وما مبدأ الاستيطان في الأراضي الفلسطينية ، الذي تبنته كل الحكومات الإسرائيلية ، إلا تعبيرا" واقعيا" وملموسا" عن هذه الحقيقة • وكما استوطنت إسرائيل الأرض ، استوطنت كذلك الاقتصاد وربطته بها وأكمل كل من الاستيطانيين بعضهما بعضاً • ولهذا ، فإننا سوف نجد أن إسرائيل لن تقبل إلا بسيادة منقوصة للدولة الفلسطينية لأنها سوف تعتبر وجودها أمراً مؤقتاً تفرض الظروف قبولها ، بقع ضمن استراتيجية العمل المرحلي الذي اتبعته الحركة الصهيونية والدولة الإسرائيلية منذ إنشائها • سياسة المراحل هذه أثبتت نجاحها بإنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ على جزء من أرض فلسطين ، وبعثلال الجزء المتبقي منها ووضعها تحت سيطرتها المباشرة منذ عام ١٩٦٧ • وبتبوء إسرائيل مركزاً عالمياً لا يمكن إنكاره •

وبالرغم من أن إنشاء الدولة الفلسطينية أصبح ضرورة إسرائيلية كما هي ضرورة فلسطينية وعربية ودولية ، كل لأسبابه ولأغراضه ودافعه ، إلا أن إسرائيل سوف تعمل على جعل العديد من

مظاهر السيادة تحت سلطتها المباشرة أو غير المباشرة ، مثل المعابر الحدودية • كل من يزور الضفة الغربية ، سوف يكتشف بسرعة حجم الاستيطان الكبير وتوزيعه حسب تخطيط استراتيجي واضح ، خاصة في القدس وأكنافاها • وسوف يعرف أن الاستيطان قد خلق واقعا" على الأرض لا يمكن إنكاره أو التراجع عنه • وسوف يكون ورقة هامة وضاعطة في يد إسرائيل في مواجهة المفاوضات الفلسطينية عندما يطالب بالانسحاب أو السيادة • وهي قد فرضت أمرا" واقعا" لا يمكن تجاهله في القدس التي ضمت إسرائيل إليها ٢٣% من أراضي محتلة منذ عام ٦٧ وأسكنت فيها ما يزيد عن ١٨٠ ألف مستوطن يهودي • وهذه المناطق أصبحت في المنظور الإسرائيلي جزءا" من القدس الكبرى العاصمة الأبدية لإسرائيل والخاضعة لسيادتها ، وبالتالي فهي خارج نطاق التفاوض •

وتعلن إسرائيل أنها سوف تضم المستوطنات وسكانها وجميع الطرق الالتفافية الواصلة بين المستوطنات بعضها ببعض ، وبين إسرائيل وتلك المستوطنات ، وكذلك شريطاً أمنياً عريضاً على طول نهر الأردن • بمعنى آخر أن الدولة الفلسطينية العتيدة ستكون مقطعة الأوصال وغير متصلة بأي من أشقائها العرب • هذا هو التفكير والتخطيط الإسرائيلي للأرض الفلسطينية وللمستقبل فلسطين • وبكل واقعية وموضوعية أن كل من يزور الأرض الفلسطينية يرى أثر ذلك التخطيط الإسرائيلي واضحاً على أرض الواقع •

ترفض إسرائيل مبدأ حق العودة للاجئين الفلسطينيين ولا تقبل بعودتهم حتى بأعداد رمزية • ثانياً :- وذلك بالرغم من أنها تمنح حق العودة لأي يهودي في العالم خلال أيام • وأسباب رفض إسرائيل واضحة ومعروفة وأهمها حفاظها على نقاء الصفة اليهودية للدولة • ولهذا ينادي باراك بالفصل السياسي الكامل بين إسرائيل والمناطق الفلسطينية •

إن العامل الديموغرافي في فلسطين وإسرائيل لا يميل لصالحها ، وعليها أن تواجه تبعات وعواقب هذا العامل عاجلاً • إذ يعيش اليوم على أرض ما يسمى (بفلسطين الانتداب) ٥ ملايين يهودي إسرائيلي في مقابل ٣ر٨ مليون عربي فلسطيني موزعين كالتالي : ١ مليون في إسرائيل ويحملون الجنسية الإسرائيلية ، ١٧ مليون في الضفة الغربية و ١١ مليون في قطاع غزة • وسوف يتساوى عدد اليهود الإسرائيليين مع العرب الفلسطينيين في العام ٢٠٢٥ • وقد تعلمت إسرائيل درساً قاسياً من سماحها ببقاء ٢٤٠ ألف فلسطيني بعد عام ١٩٤٨ ، ليصبحوا اليوم أمراً يؤرق إسرائيل ومواطنيها اليهود ، إذ أصبح هؤلاء يشكلون ١٨% من السكان ، ويزداد نفوذهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والانتخابي • والتجمعات الفلسطينية الثلاث ملتزمون كلهم بهويتهم الفلسطينية العربية الإسلامية وليس بالمشروع الصهيوني أو الأهداف السياسية للدولة الإسرائيلية •

ولا أعتقد أن إسرائيل سوف تقبل بعودة اللاجئين أو جزءا" منهم لأن في ذلك مقتل لها • وكما هو معلن ، فإن إسرائيل لا زالت متشددة جداً في أمر عودتهم إلى وطنهم ومنازلهم ، وستبقى كذلك • وقبولها بمبدأ حق العودة للاجئين سوف يخل بالتوازن السكاني فيها وبالصفة اليهودية للدولة • لهذا ، فإن إسرائيل تعمل بكل قوة ، مدعومة من الولايات المتحدة بصفة خاصة ، وبالغرب بصفة عامة ، على توطين اللاجئين في أماكن سكناهم • وأوضح مثال على ذلك هم اللاجئون الذي يعيشون في الأردن • يبلغ عدد اللاجئين كما هو مسجل لدى الاونروا في عام ١٩٩٩ ، ٣ر٦ مليون نسمة ، منهم ٤١٧ يعيشون في الأردن ويكونون حوالي ٣٥% من سكانه • وكلهم يحملون الجنسية الأردنية ويمارسون حقوقهم

السياسية فيها • واختلفت طبيعة المخيمات الفلسطينية منذ إنشائها عام ١٩٤٨ ، لتصبح الآن جزءاً من المدن الكبرى مثل عمان والزرقاء واريد ، أو قرى كبيرة قائمة بذاتها • ولأن الاونروا قد بدأت تتخلى عن الخدمات التي تقدمها للاجئين تدريجياً ، فقد أخذت الدولة الأردنية تتولى أمر تقديم هذه الخدمات كالتعليم والصحة وإيجاد فرص العمل لهم • والخوف من التوطين الذي تدعو له إسرائيل والولايات المتحدة جهاراً ، أصبح يخلق في نفوس اللاجئين في الأردن مخاوف حقيقية بأن أمل عودتهم إلى فلسطين يبتعد عنهم باستمرار • وهذا بدوره يخلق في نفوس باقي الأردنيين مخاوف مضادة تعبر عن نفسها في بعض الأحيان من خلال ما نسميه في الأردني بالاقليمية •

ولا أظن أن وضع اللاجئين الفلسطينيين في سوريا يختلف كثيراً عن وضعهم في الأردن إلا فيما يتعلق بممارسة الحقوق السياسية وتبلغ نسبتهم في سوريا حوالي ١٠% من مجموع اللاجئين ويمثلون حوالي ٢٦% من مجموع سكان سوريا • يبقى أمر اللاجئين في لبنان الذي ما زال موضوع شد وضغط داخلي وخارجي حيث تبلغ نسبتهم حوالي ١٠٥% من سكان لبنان • أما ال ٤٠% الباقية ، فانهم يعيشون على ارض فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وليس في مدنهم وقراهم الأصلية • ولذلك فان أمر حق العودة لهؤلاء لا نراه يطرح بنفس القوة والوضوح • وقد يصبح أمر التعويض عنهم هو الأقرب إلى التطبيق • بينما حق العودة عند اللاجئين المتواجدين في الأردن وسوريا ولبنان لا زال هو المطلب الأول • وفي كل الأحوال فانه يبدو لي أن التعويضات إن أقرت ، فإنها سوف تذهب كمساعدات إلى الدول وليس للأفراد لتحسين مستوى معيشة اللاجئين • وهناك دلائل تشير على أن مثل هذه المساعدات قد بدأت ترد لتحقيق تلك الأهداف •

نحن في الأردن نشعر بقوة أن إسرائيل تخطط لتفريغ الضفة الغربية بالذات من سكانها بعد الاتفاق على الوضع النهائي للأراضي الفلسطينية المحتلة ، وذلك على سنوات ومراحل طويلة الأجل ، وبرسائل تختلف عن وسائلها التي اتبعتها عام ٤٨ وبعد عام ٦٧ • وسيكون الترحيل ليس قسرياً بل ترغيبياً • لهذا فأننا نتخوف من الدعوة لاتحاد كونفدرالي أو فيدرالي مع الدولة الفلسطينية قبل أوانه وقبل نضوج الحل السياسي واختباره ، خوفاً من أن تكون هذه العلاقة الوحديوية أداة للتفريغ الأرض الفلسطينية بإخراج سكانها إلى الأردن وأفطار عربية أخرى • ومن وجهة النظر الإسرائيلية فان الكونفدرالية تأتي ضمن إطار سياسي أمني يجمع الأردن ، الأرض والمؤسسات ، والفلسطينيين بدون الأرض • وإنني من المنادين بالاتحاد مع الدولة الفلسطينية الناجزة ، أي الدولة التي تملك السيادة على أرضها وقرارها السياسي والتي لديها القدرة والإرادة على بناء مستقبل مواطنيها • وفي ذلك حماية لحقوق الفلسطينيين المشروعة ، وحماية للأمن الوطني الأردني والفلسطيني • نحن لا نريد علاقة تريح إسرائيل من تبعات وتداعيات الوضع النهائي للأراضي الفلسطينية التي تسعى لتحقيقه ، ولا نريد أن تلقى إسرائيل بمشاكلها على العلاقة الأردنية الفلسطينية • وتتهرب من مسؤولياتها تجاه الوضع النهائي للأراضي الفلسطينية ومستقبلها نريدها علاقة مبنية على أساس أن المستقبل في فلسطين يحفظ وينمي الحق والهوية الفلسطينية •

الإنسان العربي مؤمن ومقتنع أن إسرائيل سلبت فلسطين من أهلها ، وأنها اقتطعت من جسم كل ثالثاً :-
عربي ومسلم جزءاً منه ، ولن يقبل أحد أن يصبح مسرى الرسول الكريم وأولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين ، القدس ، زهرة المدائن ، ودرة فلسطين ، مدينة يهودية ، وأن يتنازل عن ١٤ قرناً من التراث

الإسلامي و٥٠ قرناً من التراث العربي فيها • إضافة إلى العامل الديني ، فإن العامل القومي والوطني يقوم بدور مماثل • ويعتقد الإنسان العربي أن إسرائيل دولة دخيلة عليه لا تمت للمنطقة أو تراثها أو تاريخها أو هويتها الدينية أو الأمنية أو الوطنية • ويشعر اليهودي الإسرائيلي نفس الشعور تجاه العرب • ولذلك نرى أن الهدف الإسرائيلي الأول هو إبقاء إسرائيل في وضع متفوق جداً على كل جيرانها العرب مجتمعين ، تفوقاً عسكرياً واقتصادياً وعلمياً • وبنت بمساعدة الحركة الصهيونية ويهود العالم شبكة هائلة تدعم إسرائيل لدى البلدان التي تعمل وتقيم فيها • وهذا الشعور زاد من مشاعر القوة والعظمة والتسلط ، وكذلك الانغلاق والانطواء للداخل • وبالرغم من كل ما حصلت عليه إسرائيل من مال وسلاح ودعم ، فإن مواطنيها لا زالوا يشعرون بخوف من المستقبل ولا زال شعار الحصول على حدود آمنة وعلى الأمن هو الهاجس في نفس كل إسرائيلي •

هذا هو السبب الذي دعى بعض الأنظمة العربية والسياسيين إلى المناداة بأن أفضل طريقة لامتناس هذه الهواجس والعقد من نفوس الإسرائيليين هي بالانفتاح السريع عليهم والتطبيع معهم •واقصد هنا ما اصطلح على تسميته بالهرولة نحو إسرائيل •

وعلى مدى خمسين عاماً منذ إنشاء إسرائيل ، بنت الأنظمة العربية العقيدة السياسية والعسكرية على أساس أن العدو هو إسرائيل وساهمت في تقوية مشاعر العداء نحو إسرائيل واستعملت ذلك غطاء في بناء الجيوش الكبيرة وتسليحها وفي إسكات المعارضة وعدم السير نحو البناء الديموقراطي والمؤسسي • وبقيت كثير من الدول العربية تحت الحكم العرفي لعقود طويلة تحت هذا الغطاء أو الحجة • ولا ننسى الدور الهام الذي لعبته الأحزاب القومية والعفائية في تصليب الموقف ضد إسرائيل •

أن إقناع المواطن العربي بحسن نوايا إسرائيل وبضرورة تغيير النظرة تجاهها كدولة غير معادية ، أمر صعب للغاية • كذلك هو الأمر بالنسبة للإسرائيلي •

إن إسرائيل تعمل بكل الوسائل على إضعاف الدول العربية بثتى الطرق والوسائل • رابعاً :- العرب يعرفون ذلك ويشعرون به مواطنين وحكاماً • أخطر ما تقوم به إسرائيل أنها تعمل على تطويق العالم العربي من خارجه • ولذلك فإنها تتحالف مع تركيا المتحكمة بالشريان المائي الحياتي في كل من سوريا والعراق • وهي تسعى لخلق مشاكل لمصر مع الدول التي يمر بها نهر النيل • كذلك هي تتحالف مع اريتيريا لكي يكون لها موطن قدم في بعض جزر البحر الأحمر التي تستطيع من خلاله أن تؤثر على الملاحة القادمة من باب المنذب والتأثير على بلدان عربية مثل اليمن •

إضافة إلى ذلك فإن هذا التواجد في الدول المحيطة بالعالم العربي يعطيها ميزة عسكرية هامة جداً تستطيع أن تهدد بها بلداناً عربية في إفريقيا آسيا والخليج • لذلك فإن المواطن العربي والحكام كذلك لا يستطيعون الاطمئنان إلى حسن نوايا إسرائيل طالما أنهم يعرفون كل هذه الأهداف والتحركات الاستراتيجية •

هذه الأسس في معادلة النزاع العربي الإسرائيلي ، وهذا الخلل البين والتنافر بين أطراف النزاع ، تصاحبه تطورات سياسية قد تؤدي إلى تعقيد الأمور وإلى إعادة الوضع إلى الوضع إلى المربع الأول ، مربع ما قبل مؤتمر مدريد • واقصد بذلك أمر المسار السوري الإسرائيلي • وإذا نجحت إسرائيل في فصل المسارين السوري واللبناني بإتمام انسحابها إلى الحدود الدولية اللبنانية ، بدون الوصول إلى اتفاق مع سوريا ، فسببى في يد سوريا أوراقاً هامة لتلعبها في الضغط على إسرائيل وكذلك على الولايات المتحدة لتثبت لكيهما أن مفتاح السلام سيبقى بيد سوريا ، وهي التي بإمكانها فتح أبواب العالم العربي أمامها • أما هذه الأوراق فبعضها موجود في لبنان وبعضها موجود في الضفة الغربية وغزة ، وأقلها موجود في سوريا نفسها • وإذا ما تم اختراق جدار الأمن الإسرائيلي من قبل عناصر فلسطينية إسلامية أو غيرها ووقعت خسائر بشرية في إسرائيل أو الضفة الغربية ، فإن المسار الفلسطيني هو الآخر سوف يتعطل سوف تتشدد كل الأطراف السياسية في إسرائيل أكثر من ذي قبل تجاه قضايا الوضع النهائي للأراضي الفلسطينية • ولن يبقى الأردن في منأى عن هذه التطورات فيما إذا حدثت •

وفي هذه الحالة ، لن استغرب ظهور دعوات ، خاصة من جهات شعبية وأهلية ، تدعو إلى إعادة تعريف القضية الفلسطينية مرة أخرى ، مع الحفاظ على وتنمية الهوية الفلسطينية ، حتى يتمكن الفلسطينيون داخل الأرض الفلسطينية وفي مخيمات اللاجئين في الأردن وسوريا ولبنان ، ومن الاعتماد على عمقه العربي والفلسطيني ، الذي هو بحاجة إليه في مواجهة العمق اليهودي والإسرائيلي في الولايات المتحدة والغرب •

أما إذا حصل الاتفاق بين سوريا وإسرائيل ، فإن أموراً كثيرة سوف تتغير وسوف تميل المنطقة إلى التهدئة • وإنني أجهل أثر الوضع العراقي السياسي الحالي أو المستقبلي على شكل ونوعية وتوقيت التسوية السياسية القادمة • وبالتأكيد ، فإن دخول العراق على خط التسوية السلمية هو أمر مطلوب جداً ، والحصار الظالم عليه هو تعبير عن هذا الوضع • وقد جرت في الماضي القريب محاولات من قيادات عربية لمبادلة رفع الحصار عن العراق مقابل دخوله على خط التسوية السياسية • فكان الجواب العراقي بالرفض القاطع